

فلسفة التلقي أو الإنصات إلى الطبيعة قراءة في الأدب النسوي الايكولوجي

The Pilosophy of Receiving or Listing to Nature Is a Reading of Ecological Feminist Literature

ط/د سمية زواري¹، أ.د بخدة براشد²، أ.د معمر قادم³

مخبر: المجتمع ومشاكل التنمية المحلية في الجزائر، جامعة حسيبة بن بوعلي (الشلف)

¹ جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر)، s.zouari@univ-chlef. dz

² b.bekhedda@univ-chlef.dz

³ m.kadem@univ-chlef.dz

تاريخ الاستلام: 2024/07/.22 تاريخ القبول: 2024/09/08 تاريخ النشر: 2024/10/01

ملخص:

تُعتبر النسوية البيئية من أهم وأبرز التيارات الفكرية الغربية المعاصرة في مجال الأخلاقيات البيئية، فالنقد النسوي قد وجه سهام الاتهام إلى المجتمع الأبوي الذكوري في الاستغلال والتدمير البيئي كما هو الشأن بالنسبة للمرأة تماما، وهو ما جعل الأدب النسوي يندشط بشكل ملفت للانتباه مفجرا طاقاته الإبداعية للتعبير عن تجارب أنثوية ذاتية تحلل هذا الانتهاك البيئي وتأثيراته السلبية على مختلف كائنات الطبيعة. لذلك فهذه الورقة البحثية ستحاول الكشف عن عناصر ثقافية تلخصها فلسفة التلقي أو الإنصات إلى الطبيعة بهدف إعادة إحياء علاقتنا القديمة كبشر مع البيئة في قالب من الود والاهتمام والرعاية يبرز تفاعلا عميقا وتآزرا وجدانيا لا مثيل له، وهو ما دشنته العديد من الأعمال الأدبية والفنية في شكلها الروائي القصصي تحديدا الذي يحاكي التمثل النسوي للطبيعة في قالب سردي متميز. كلمات مفتاحية: النسوية البيئية؛ الأخلاقيات البيئية؛ النقد النسوي؛ الأدب النسوي؛ فلسفة التلقي.

Abstract:

In the area of environmental ethics, ecofeminism is regarded as one of the most important and well-known modern Western philosophical currents. Similar to how it treats women, patriarchal, male-dominated society has come under fire from feminists for allegedly destroying and abusing the environment. Feminist writing has been inspired by this to actively use its creative powers to analyse these environmental crimes and their detrimental effects on different natural beings, as well as to convey personal feminine experiences.

In the process of recreating our old human relationship with the environment within a framework of respect, care, and nurturing, Our research paper will attempt to reveal cultural

components wrapped in a philosophy of receptivity or listening to nature. This emphasises a deep and unmatched emotional exchange and symbiosis, initiated by a multitude of narrative literary and creative works, particularly those that resemble the feminist incarnation of nature in a unique storytelling style.

Keywords: ecofeminism; environmental ethics; feminist criticism; feminist literature; philosophy of receptivity .

*المؤلف المرسل: سميرة زواري

1. مقدمة

اتجه النقد النسوي الغربي المعاصر اصوب التحيزات الذكورية للأبوية ضد الأنثوية والى العمل على تحريرها، وهو ما كرسته العديد من الأعمال النسوية الأدبية على غرار: الرجل القرد (1943) للصيني لاو شي، نار على جبل Fire on the Mountain (1977) للأديبة الهندية أنيتا ديساي، فان النقد النسوي البيئي اتجه صوب هذه التحيزات ضد الطبيعة للتعبير عن الظلم البيئي الذي يهددها بالانقراض من خلال استنزاف متواصل لمواردها، وهو ما دونته روائع نسوية بيئية أمريكية شهيرة حللت هذا التدمير البيئي على غرار: الربيع الصامت Silent Spring (1962) للكاتبة وعالمة الأحياء راشيل كارسون، والمرأة والطبيعة الهدير في داخلها Woman and Nature : The Roaring Inside Her (1978) للكاتبة والشاعرة سوزان غريفن، والجنة الخضراء المفقودة Lost Paradis Green لليزابيث دودسون غراي، مع استشراف فلسفة جديدة تحاكي فيها النسوية البيئية أصوات الطبيعة ومختلف عناصرها في محاولة فريدة من نوعها لاسترجاع ذلك التفاعل التقليدي الذي كان بين الإنسان والبيئة تحت مُسمى: "فلسفة الإنصات إلى الطبيعة".

ومن هنا تُثير هذه الفلسفة الجديدة التي تطرحها النسوية الأدبية البيئية مشكلة تتعلق بكيفية تجسيد هذا التفاعل بين الإنسان والطبيعة ما يجعلنا نطرح التساؤلات البحثية التالية: كيف ربط النقد الأدبي بين النسوية والبيئة؟ وكيف استطاع الأدب النسوي البيئي أن يحاكي فلسفة إصغاء للطبيعة؟ وكيف تم تجسيد هذه العلاقة السردية في أعماله الفنية؟

فقيمة المشكلة البحثية تتجلى في كونها تهدف إلى استكشاف العلاقة بين الأدب النسوي والبيئة، والى توضيح الترابطات بين الأساليب السردية ونظرية التلقي والإنصات إلى الطبيعة، إضافة إلى الإشارة إلى الأعمال الأدبية للنسويات التي جسدت هذه الترابطات والفلسفة الجديدة لمحاكاة البيئة والتلقي خصوصا في النموذج الروائي من خلال النماذج المختارة.

2. النسوية والبيئة:

1.2 في النقد النسوي:

شهد القرن التاسع عشر بيانا شديدا للهجرة وتحديا قويا ومتزايدا لاستقلالية المرأة وتعلينا أفضل للنساء، و ظهرت الحركة النسوية في أمريكا من رحم الحركة المناهضة للعبودية التي كانت في البداية حِكرًا على النساء البيض ثم امتدت لتشمل السوداوات، كما ظهرت العديد من المجالات ذات التوجه النسوي في عشرينيات القرن العشرين تحلل وضع المرأة مثل كتاب "الزمن والمد والجزر" (1920) التي ساهمت فيه نسويات بارزات: فرجينيا وولف، ربيكا ويست، روز ماكولاي (walters, 2005, pp. 55,89).

وفي هذا القرن اتخذت النسوية مع الكاتبة الفرنسية سيمون دي بوفوار مسارا أكثر فلسفية وتعبيرا عن حركة نسائية ثقافية حقيقية في كتابها الشهير "الجنس الثاني" (1949)، فالمرأة موضوع خضع لهيمنة الرجل وقيمه، وقد فسّحت المرأة ذاتها المجال لهذه الهيمنة برضوخها "فالمرأة لا تولد امرأة بل تصبح كذلك" بفعل المجتمع الذكوري، ويمكنها تغيير وضعها والخروج من حالة السلبية هذه، فبالنسبة إلى بوفوار أن تصبح امرأة "هو مجموعة من الأفعال الهادفة والمناسبة واكتساب تدريجي للمهارة، وهو مشروع بالمصطلحات السارتية لافتراض أسلوب وأهمية جسدية راسخة ثقافيا" (Buter, 1987, p. 128) فمواقف بوفوار تمثل عقيدة الاختيار الوجودية منطقيا وثقافيا، فيصبح "النوع الاجتماعي" هو المكان المادي للمعاني الثقافية المتلقاة والمُبتكرة، و "الاختيار" في هذا السياق يأتي للدلالة على عملية تفسير جسدية ضمن شبكة من المعايير الثقافية الراسخة.

ومنذ أواخر القرن الماضي أضحت النسوية المتمردة أكثر تيارات النسوية ما بعد الحداثية انتشارا وتأثيرا في مختلف حقول السياسة والاجتماع التي وجهت منظارها إلى فئات نسوية ومجتمعية مغايرة مثل: العالم الثالث، الفقراء، والملونين، وهذا ما نهت إليه بوفوار، كما أضحت فلسفة الجندر أو دراسات النوع الاجتماعي للجنسين في طليعة تيارات الفكر النسوي ما بعد الحداثي التي شنت حربها على ترأثبية الفكر الأبوي التقليدي في مجال الفلسفة والتحليل النفسي والبيولوجيا والطب لتطعن في المركزية الذكورية وهيمنتها وتهميشها للهوية الأنثوية، فقد شكلت النظرية النسوية الراهنة جسًا نقديا متميزا على خطى بوفوار على غرار: لغز المرأة لسارة كوفمان، ومنظار المرأة الأخرى للوس اريغاري، أو ما طرحته نظرية جوليا كريستيفا التي أدت إلى تحول في خطاب الأمومة واللغة التزاوج بين الخطاب النسوي والنظرية السيميائية والنفسية (بكاي، 2019، صفحة 17).

2.2 في النقد النسوي البيئي:

تُعتبر النسوية البيئية فرعًا أساسيًا من فروع الدراسات البيئية الأخلاقية المعاصرة التي جعلت من الطبيعة مركز اهتماماتها البحثية، هذا المصطلح Éco féminisme الذي تم تدشينه مع الفرنسية فرانسواز دي أبون Françoise de abonne في كتابها "النسوية أو الموت" (1974)، حيث بينت الترابط الوثيق بين الهيمنة الأبوية على الطبيعة وتشابها مع الهيمنة على النساء، وبذلك أحدثت ثورة في عالم البيئة أشارت إليها كارولين ميرشنت التي صنفتها إلى ثورة

استعمارية وأخرى رأسمالية، فقد شكل "موت الطبيعة" لميرشنت تحدياً واضحاً ومباشراً للسرد، فالثورة العلمية أدت إلى استغلال النساء والطبيعة، واستبدلت تجسيد الطبيعة كأم خيرة، معطاءة، ومربية إلى أم شريرة، مدمرة لا يمكن السيطرة عليها، فهذا التجسيد للطبيعة هو بمثابة التمهيد للهيمنة والاستغلال والقضاء على حيويتها وفعاليتها.

وبهذا نكون بحاجة إلى ثورة ثقافية جديدة إلى جانب الثورة في الهياكل الاجتماعية والاقتصادية والجنسية، وهو ما أدركته النسويات البيئيّات: لغة جديدة ورميزات حديثة تعيد العلاقة المنسجمة بين النساء والطبيعة بدل علاقة الصراع والاستغلال التي كرستها الأبوية، هذا الاندماج الرمزي الجديد عبرت عنه سوزان غريفن بكل قوة في عبارتها القائلة: "أعلم أنني خُلقتُ من هذه الأرض، كما صُنِعتُ يدي أُمي من هذه الأرض، كما جاءت أحلامها من هذه الأرض..." (Merchant, 1996, p. 141). فلا يمكن في نظر ميرشنت إنكار مركزية النسق الرمزي في توليد الاستجابة العاطفية التي ستؤدي بدورها إلى إنشاء أخلاقيات و أنماط سلوكية جديدة اتجاه المرأة والطبيعة معا.

لذلك كان اتخاذ موقف احترام الطبيعة أو النظر إليها على أنها ذات قيمة أخلاقية في ذاتها ضرورة لا مفر منها لإنشاء أخلاق بيئية تقوم على الرعاية والتعاطف مع هذا الآخر غير البشري بدل النظر إليه كمورد للاستغلال " فالأهمية الأخلاقية للطبيعة يمكن تفسيرها و لا يمكن إثباتها في النهاية، والعالم الذي يحترم فيه البشر الطبيعة هو عالم أكثر عدلاً" (Kareen, 2000, pp. 76,97).

إن النقد النسوي فعّل في مجال الأخلاق البيئية الكثير لجذب الانتباه إلى تعقد التجربة الأخلاقية وإلى التحيّز الذكوري في تفسيراته لها، والفهم الأخلاقي النسوي ينطوي على قوة التواصل والإدراك وعلى تقديس القصة والسياق، فأخلاق العناية تسعى إلى إعادة تشكيل علاقات جديدة وتنميتها بعيداً عن النظريات الأخلاقية الذاتية الليبرالية.

وبذلك فإن التحليل النسوي البيئي للسلطة يعترف حسب كارين وارين بأن مذاهب الهيمنة مرتبطة بمنطق أبوي مشترك يُدرك النسويون البيئيون أنه مسؤول عن استغلال كل من المرأة والطبيعة، فالنسوية البيئية لا تتعلق بالنساء بقدر ما تتعلق بعدم المساواة والتحيّز والقمع والأذى الذي يلحق بالبشر وبالكائنات الحية الأخرى وبالأنظم البيئية، فهي تمكين للأنظم البيئية التي تُقدّر صوت الآخر وتحترم المنظور المتنوع، فالذكاء العاطفي عند وارين بمثابة نظرية معرفية بديلة فعالة لنموذج هيمنة العقل الديكارتي" (Glazebrook, 2021, p. 132).

هذا، وتجادل ماري دالي بأن النظام الأبوي يستغل النساء والطبيعة بالطريقة نفسها، فهو ينظر إليهما كمورد استغلال لا غير، لذلك تطالب بأخلاقيات نسوية بيئية جديدة قائمة على أساس احترام العلاقات بين البشر والطبيعة ف"جين ايكولوجي" هو في المقام الأول استعادة لرمزية المركزية النسوية القوية النقية المضادة للتشويه الأبوي، فالجين البيئي يعني "ارتباط كل شيء بشي آخر" (Daly, 1978, pp. 12,13).

3. التلقي، السياق، الطبيعة وعلاقته بالأدب النسوي البيئي:

1.3 في الأدب النسوي البيئي:

تُعرّف Chery النقد البيئي بأنه: "دراسة العلاقة بين الأدب والبيئة المادية (Kàur, 2012, p. 188). ولقد بدأ النقد البيئي كنظام أكاديمي محدد انطلاقاً من التسعينيات، رغم أن المصطلح استخدمه ويلهام روكيرت لأول مرة سنة 1978 في مقالته النقدية "الأدب والبيئة: تجربة في النقد البيئي".

نستنتج من ذلك أنه قبل ظهور النقد البيئي كنسق أكاديمي في الغرب فإنه ظهر كنشاط وكحركة بيئية في بعض دول ما بعد الاستعمار في إفريقيا وجنوب آسيا خصوصاً في الهند، حيث شهدت حركة اجتماعية وبيئية قوية قادتها نساء حركة "تشيبكو" التي طرحت مفهوم "معانقة الأشجار" لوقف أنشطة تدميرية للبيئة من إزالة الغابات، قطع الخشب، والتعدين، فهي مثال لحركة أدركت مبكراً تحول الطبيعة إلى مورد استغلال وبيع، وعي يعبر عن تمثيل يضفي طابعاً رومانسياً على الطبيعة في مختلف جوانبها.

في كتابها الرائع المثير للجدل "الربيع الصامت" (1962) الذي يمثل أحد الإرهاصات الأولى للنسوية البيئية تشير الكاتبة الأمريكية راشيل كارسون إلى بشاعة التقدم التكنولوجي الأبوي، إنها قصة عن استخدام المبيدات الحشرية الكيماوية السامة التي أدت إلى تهديد الحياة البرية في أمريكا، إنها تتحدث عن الترابطات بين كائنات الطبيعة من نباتات وحيوانات وتضامنها المطلق مع بعضها البعض، فالإنسان لا يمثل إلا جزءاً من هذه الكائنات، وباعتباره كائناً عاقلاً فلا يمكن له أن يساهم في أذية بيئته لأنه جزء من هذا العالم الحي (كارسون، 2005، صفحة 5).

الربيع الصامت حسب جون لوفلوك كان نقطة تحول في التاريخ البيئي فقد "فصلت العالم البري القديم للطبيعيين والشعراء بشعور من الدهشة بجمال الأرض عن عالم جديد لسكان مدن جهلة" (لوفلوك، 2012، صفحة 172). فقد كانت كلمة "أخضر" ذات دلالة طبيعية حقيقية للسكان الأصليين قبل أن تتشوه على يد إنسان المدينة، الربيع الصامت قد أوحى إلى جيمس لوفلوك بفرضية "غايا" (1965) عن النظام الأرضي الذي يعني: "أرضاً تُنظّم نفسها ذاتياً من خلال مجتمع من الأشياء الحية المتحركة" (لوفلوك، 2012، صفحة 129)، فالأرض عبارة عن كيان عضوي كامل (غايا) وتنظيم ذاتها محكم وغائي يهدف إلى الحفاظ على نفسه، والتّحيز لغايا ليس شخصي بل حتمية لا بد منها من أجل توعية المجتمع البشري بضرورة تضافر الجهود لحمايتها وهو في الحقيقة حماية لذواتنا كجزء من هذا النظام الحي، أما التطور التقني للإنسان هو تهديد لغايا.

هذا، ويناقش كتاب "الجنة الخضراء المفقودة" للكاتبة والنسوية البيئية الأمريكية اليزابيث دودسون غراي كيفية تأثير الأنشطة الإنسانية على الطبيعة ومساهمتها بذلك في تدهور الأراضي الخصبة مع تركيزها على ضرورة إيجاد بدائل لحماية التنوع البيولوجي واستعادته ضماناً للأجيال المستقبلية، ويتميز أسلوب الكاتبة بأسلوب سردي متميز يجمع بين ثنائية البحث العلمي والبيئي والسيرة الذاتية في سياق النقد الأدبي، فالنموذج الهرمي للعالم حسب غراي يُعلّمنا المحافظة على مسافة عاطفية لتجاربنا في الارتباط بالطبيعة، فالتصور الكوني الهرمي يجعلنا آخرين غير الأرض، لكن

تبقى الأرض هي الموطن، هي الأصل، والكائنات الحية هي بمثابة رفقاء في السفر، فاختلافنا عن الآخر البشري لا يعني انفصالنا عنه بل نحن في أشد الترابط معه " إنهم المنتجون الأصليون لكل الطاقة الغذائية التي نستهلكها" (Dodson, 1979, p. 21).

و يظهر بجلاء الأدب النسوي البيئي في أسلوب مواطنها سوزان غريفن في "المرأة والطبيعة: الهدير في داخلها" (1978) المتألق في قالبه الأدبي الفريد من نوعه دمجت فيه بين الشعر والنثر والفلسفة والتاريخ والبيئة لتحليل العلاقة بين المرأة والطبيعة ما خلق تجربة رائعة في لغة شديدة التعقيد، فالمرأة والطبيعة كتاب غير تقليدي بتعبير صاحبتة " إن نثري في هذا الكتاب يشبه الشعر، ومثل الشعر يبدأ دائماً دائماً بالشعور، وبالتالي تجنيد حدسي من أجل أن أكتشف رؤيتي حول منطق الإنسان المتحضر (أو فكر الإنسان الأبوي)" (Griffin, 2015, p. paragraphe 6). فأسلوب كتابة غريفن هو محاكاة ساخرة للفكر الأبوي الذي يقدم نفسه على أنه بلا عاطفة موضوعي منفصل عن الجسد، وبالتالي فصل بين المرأة والطبيعة، صوت يمزج بين الجسدي والعاطفي، وبذلك يتم تضمين الحوار في كل ثنايا الكتاب.

2.3 التلقي، السياق، والإنصات إلى الطبيعة:

1.2.3 في مفهوم التلقي والسياق:

إن التلقي هو بحث في قنوات التواصل ومن جماليات النص الأدبي، وفي آن واحد من آليات القراءة والفهم والتفسير له، أما نظرية التلقي فهي رد فعل على النظرية البنيوية التي تعتبر النص وحدة مُغلقة على ذاتها، وباختصار فانه -أي التلقي- هو تبادل التأثيرات الوجدانية والتأملية مع مضمون النص وموضوعه، وفتح آفاق جديدة لإعادة إنتاجه من طرف القارئ.

إذن، فالتلقي كنظرية يرتبط بمعنى أشمل هو نظرية الاتصال التي بدأت معالمها تبرز منتصف القرن العشرين في ألمانيا قبل شروع كل من "آوس" و"آيزر" في نسج الخيوط العامة للنظرية التي استفادت من الأبحاث الفلسفية الألمانية خصوصا " مدرسة فرانكفورت" التي حققت نجاحا في تشكيل أنساق فلسفية نقدية مُشبعة بالتفاعل والتواصل (ابراهيم، 1999، صفحة 71). ويظهر هذا خصيصا مع مفكر الجيل الثاني يورغن هابرماس ونظرية العقل التواصلية في مقابل العقل الأداتي، فمن الذات المنغلقة على نفسها إلى نظرية اجتماعية جماهيرية.

وفي النسوية البيئية فان التلقي يشير إلى " أحد خصائص الطراز البدائي للأنثوية الذي يَهَبُ العلم انفتاحا على الإنصات للطبيعة فيما يشبه الحوار أو التشارك مع الطبيعة" (شيفرد، 2004، صفحة 111). فالتلقي لا يعكس نشاطا سلبيا بل يركز على الشعور والإصغاء إلى الطبيعة في لغة تنبض بالحياة والعاطفية والتفاعلية كمصدر للإبداع للعالم ومصدر للإلهام الفني، ومراقبة الطبيعة على حالها دون تأثير عليها يوحى بالهيمنة كما هو الشأن في الحضارة الغربية فهو يعني " أن تتلقى الآخرين وأن يتلقاك الآخرون" (شيفرد، 2004، صفحة 113)، فالتلقي هو انكشاف صوفي إن صح التعبير يتجلى نتيجة قوة الإصغاء التأملية للطبيعة وقوة التلقائية دون أية سلطة تحكمية، فالتلقي في الأدب النسوي البيئي يمثل باختصار هبة الله في الطبيعة.

فالتلقي هو اتخاذ موقف برّ من الطبيعة كما يسميه ويفر: " انه أي البرّ يعترف بحق لوجود أشياء أوسع من الأنا، أشياء تختلف عن الأنا" (زيمرمان، 2006، صفحة 175)، والتفاعل البيئي يحتاج إلى ثلاثية: روحية الطبيعة التي تجسد جوهر فلسفة التلقي من خلال التأمل، الآخر البشري، والماضي كوعاء للمعرفة الأنثوية الايكولوجية المميزة مع وجوب احترامها.

إذن، فالبرّ البيئي بمثابة صوت داخلي يخبرنا بأن وجودنا من الطبيعة، هي علاقة تشكل نمط حياة روعي متناغم وأبدي، وفي النهاية نصل إلى استنتاج مفاده بأنه: على الإنسان واجب توقير الطبيعة وكل ما هو طبيعي، فالإنسان ليس سيّدا على الطبيعة بالصيغة الديكارتية بل هو جزء منها، يجب عليه أن يُبجّلها بكل تواضع.

2.2.3 السياق والإنصات إلى الطبيعة:

يُنشد لوفلوك بضرورة العودة إلى ذلك الاستمتاع البسيط للطبيعة، هذا الاستمتاع كرسنه كارسون من خلال عشقها للريف والبرية كما تبين في الربيع الصامت، وخصوصا في كتابها الآخر "البحر حولنا"، فعلم غايا (علم الطبيعة) بمثابة جرس إنذار للتهديد الذي يطال الطبيعة، وفي آن واحد هو دعوة إلى الاستمرار في الإنصات إلى الطبيعة في سياقها القديم حيث تمثل الأرض المركز، والأم المعطاءة الواهبة للحياة في ترابط متلاحم لأعضائها "إننا جزء من غايا كأي جزء حي علينا أن نشعر بأننا مقيدون بها كما في زواج جيد ممتلئ بالحب حتى يفرقنا الموت" (لوفلوك، 2012، صفحة 188).

كما تُعتبر حركة نساء "تشيبكو" المؤسسة للنسوية البيئية في العالم الثالث في سفوح الهيمالايا دلالة قوية في السياقية وفلسفة الإنصات إلى الطبيعة، على أساس أنها كانت رد فعل مناهض لقطع الغابات، فالتمسك بالشجرة من قبل نساء "تشيبكو" (معانقة الأشجار) لا يرمز فقط إلى محاولة إنقاذ الشجرة، بل يرمز إلى تلك المعرفة التقليدية الأصلية المحلية والى ذلك الطراز البدائي القديم، فالمايه دلالة رمزية على الأمان من الفيضانات، والغابة دلالة رمزية ل: الغذاء، العلف، ومواد البناء، والأدوية التقليدية، فالإنصات إلى الطبيعة يعني الإصغاء إلى هباتها للحياة تستدعي الاحترام والحماية، فهو إصغاء يحمل دلالة ازدواجية: الدفاع عن الطبيعة، وعن الثقافة المحلية معا.

هذا، وتجب كارين وارين في مقالها "قوة ووعد النسوية الايكولوجية" عن السبب الذي يجعل من السياقية خاصية مميزة للنسوية البيئية إلى جانب كونها أداة أدبية مفيدة بأن:

- السرد تعبير عن حساسية واقعية ملموسة للعلاقة البيئية.
- السرد تعبير عن علاقة تعاطف وعناية، وهو بذلك يتجاوز الأخلاق الغربية القائمة على الأنانية.
- للسرد أهمية ججّاجية من أجل التأكيد على النتيجة الأخلاقية المتبناة من طرف النسوية البيئية " ضرورة اتخاذ موقف احترام الطبيعة" (زيمرمان، 2006، صفحة 109).

هذه السياقية تتجلى بفعل إنصات حقيقي للطبيعة اختبرته التجربة الشخصية لوارين ذاتها في رحلتها نحو تسلق للجبال، حيث تفاعلت بكل كيانها ووجدانها مع مخلوقات الطبيعة من: صخور، طحالب، مياه، زهور في لغة طفولية

هامسة معبرة عن تعاطف عميق مع البيئة في شكل سردي أدبي في مُنتهى التناسق والجمال " نظرت حولي (...) نظرت حقا وأصغيت سمعت مجموعة من الأصوات، الطيور وقطرات الماء على الصخر أمامي، المؤنجات المرتبطة بالصخر تحتي (...) بدأت التحدث إلى الصخر بطريقة طفولية هامسة كما لو أن الصخر صديقي، شعرت بإحساس بالغ العرفان لما أتاحة لي من فرصة معرفة نفسي ومعرفة الصخر على نحو مختلف (...) أصبحت أهتم لهذا الجُرف الصخري المختلف تماما عني، أردت أن أكون معه أثناء تسلقي" (زيمرمان، 2006، صفحة 108).

إن شعور الارتباط بالطبيعة يُبنى على إدراك مُحب يخالف الإدراك الأناني، و هو ما رصدته أيضا شيفرد جين ليندا في "أنثوية العلم" من خلال قصصها عن علماء من النسوة أدركن قوة الإصغاء إلى الطبيعة في مجال عملهن، فهن يمثلن اختلافا عن نظرة الرجل للطبيعة كعلاقة تفاعلية مبنية على التعاطف والاتصال الروحي متناسق فريد من نوعه، وليس مجرد أرقام أو عمليات فيزيائية أو بيولوجية، ومن بين الأمثلة على ذلك حديث لإحدى عالمات البيولوجيا الخلوية وصفت فيه مجال عملها بالقول: " حين تنظرين من المجهر ترىين حياة أشياء تتحرك أمام ناظريك، ألياف جميلة أو خلايا سرطانية لها تلك الأذرع والتجعدات الجميلة على الحواف، إنها مليحة تنطوي على جماليات" (شيفرد، 2004، صفحة 100)، كذلك تشير إلى أعمال باربرا كلينتوك عالمة الجينات التي كانت في قمة الترابط حتى النخاع مع نباتاتها: " أنا أبدأ بالنبتة الصغيرة و لا أريد أن أتركها، لا أشعر أنني عرفت القصة حقيقة إذا لم أرقب النباتات بكل السبل على طول المدى (...) هكذا أعرف كل نبتة في الحقل، أعرفها معرفة حميمة وأجد بهجة حميمة في معرفتها" (شيفرد، 2004، صفحة 102)، فالترابط والحب اللامشروط والاحترام هو عنوان الإصغاء إلى الطبيعة في شكل سردي قصصي، ذلك الشعور العميق الناتج عن تجارب شخصية مميزة بلا شروط ولا هيمنة أو استغلال عبر عنه الأدب النسوي بامتياز منقطع النظير.

ويمكننا أن نشير في هذا المقام إلى الساحرة والناشطة البيئية والكاتبة الأمريكية ستارهوك Starhawk التي طالبت باتخاذ موقف احترام للطبيعة من خلال تبنيها لممارسات روحية تعبر عن الاتصال بالطبيعة العميق مُعترفة بقيمها الجوهرية في ذاتها، وهو ما عبرت عنه في مقدمة "الرقصة الحلزونية ولادة جديدة" بقولها: " إيماني هو الحب لجميع الكائنات وتفهمي لحقيقة الأرض، فكل الحياة مقدسة ومتراطة" (Starhawk, 2011, p. paragraphe15)، فقضاء بعض الوقت مع الطبيعة جعل ستارهوك تنظر إليها بشكل مغاير أكثر روحانية وتقديسا، وأضحت الأعشاب والنباتات التي تستخدمها في السحر ليست مجرد أسماء بل هي شخصيات حقيقية تربطها بها علاقة مستمرة، هذا هو إذن معنى الإنصات إلى الطبيعة معنى يحمل تفاعل وجداني بين الآخر البشري في خطاب يشبه تماما خطابات البشر.

وفي مؤلفها "مسار الأرض: تسريح روحك لإيقاعات الطبيعة" تجمع ستارهوك بين الخيال والفلسفة البيئية وبين السحر الحديث، وتؤكد على العلاقة الوطيدة بين الإنسان والأرض، وتقدم تصورا جديدا للتفاعل مع البيئة وعناصر الطبيعة تفاعلا يقوم على الترابط الروحي العميق مستخدمة الأسلوب السردي الخيالي مجسدة لغة الإنصات إلى الطبيعة ببراعة وجمالية خالصة تبرز خصيصا في الفصل الأول من الكتاب المعنون ب: نحو بحيرة الطيور " هذه

الأشجار والفروع هي جزء منا كما أصبح كل منا جزء من هذه الأرض، الماء الذي جلبناه هو ماء شربنا، الماء الذي ينمو في حدائقنا، نحن نأكل ونشرب من هذه الأرض" (Starhawk, 2013, p. paragraphe9) ، فالآلهة المقدسة تتجسد في العالم الطبيعي من خلال عمليات الطبيعة: النمو، الحياة، الموت، وبذلك يصبح الإصغاء الفعلي إلى الطبيعة هو تعميق فهمنا لعملياتها وتقديرنا لذلك، مع التعرف إلى أصواتها وان لم نستطع ترجمتها.

و لا يمكننا أن ننهي حديثنا عن فلسفة الإصغاء للطبيعة دون أن نُعرج على صاحبة " بصوت مختلف " كارول جيليجان النسوية الأخلاقية والمعالجة النفسية الأمريكية الذي يُعد كتابها إرهابا غير مباشر لهذه الفلسفة في نظريتها حول "أخلاق الرعاية" التي تركز على العلاقة والمسؤولية اتجاه الآخرين (Giligan, 2008, pp. 1,2) ، فالإنصات للطبيعة يمكن أن نلمحه من خلال مسؤولية الكائنات البشرية اتجاه البيئة والكوكب، وهو إصغاء يتطلب إدراكا عميقا ووعيا شاملا بالعالم الطبيعي، ففحوى النظرية أن الفرد مجرد عنصر في سلسلة العلاقات، والإنسان مجرد جزء من النظام البيئي يؤثر فيه ويتأثر به في شكل سياقي عبر عنه لوفلوك قبلًا بمبدأ "غايا"، فالأرض كائن حي تربطه شبكة علائقية بين كائناته المتنوعة.

4. التكامل بين فلسفة السرد والتلقي في الأدب النسوي البيئي:

إن الهوية السردية المُجسدة في النوع الروائي النسوي تجسدت من خلال: رؤية نقدية للفكر الأبوي الذكوري، واستبداله برؤية جديدة تقوم على الرؤية الأنثوية والإشادة بالجسد الأنثوي، وهو ما تم تطبيقه في المجال البيئي من خلال الاحتفاء بذلك الاتحاد بين الأنثى والأرض كسبيل وحيد لتجاوز الانتهاكات البيئية، هذا الاتحاد عبرت عنه فلسفة التلقي أو الإنصات إلى الطبيعة للكشف عن البدائل الأنثوية في تجاوز السياسة القمعية للمجتمع الأبوي، من خلال تفاعل الشخصيات مع البيئة وكيفية انعكاس ذلك على تطور الأحداث الروائية يتم تجسيد هذا الإنصات أو التلقي بتقنيات متنوعة أهمها:

- الحوار الذاتي للشخصيات الذي يعبر عن ذلك الترابط الروحي والعاطفي بين الإنسان والبيئة من خلال تواصل فكري ووجداني عميق.
- استخدام المنهج الوصفي للتعبير عن تفاصيل وجزئيات العالم الطبيعي وكيف يتم تأثر الشخصيات معها، ما يجعل هذا العالم ليس مجرد شيء عابر في الأحداث بل عنصرا فعالا في السرد باعتباره شخصية مؤثرة وفعالة فيها.
- استخدام الاختلالات المناخية والكوارث الطبيعية لإبراز التأثير المحوري للطبيعة على مجرى حياة الشخصيات.

4.1. أرونداتي روي ورواية "اله الأشياء الصغيرة" 1997:

The God of Small Things للكاتبة الهندية Arundhati Roy (1961 مولدها) فائزة بالجائزة العالمية

للرواية بوكر 1997 وجائزة لانان 2002 لحرية الثقافة، هي قصة تدور أحداثها في بلدها الهند تعالج قضايا متنوعة أبرزها

القمع الأبوي الاجتماعي، رواية ذات صلة وثيقة بالبيئة وفلسفة الإنصات إلى الطبيعة من خلال: منهج وصفي للطبيعة وعناصرها تظهر فيه كائناتها كشخصيات حقيقية تلعب أدوارا مهمة في السرد القصصي من: أنهار، حقول، مزارع، غابات، حفيف الأشجار، صوت الأمطار.

الإشارة المفصلة إلى التدهور والتدمير البيئي الذي طال الطبيعة، فالرواية قد سلطت الضوء على التأثيرات البشرية السلبية عليها مع الإشارة إلى العلاقة العكسية بين التقدم الصناعي وازدياد الأزمة البيئية في صور بيانية بديعة: " بالرغم من حقيقة أنه كان شهر حزين، وأنها كانت تمطر، لم يكن النهر أكثر من مجرور مُتورم(...) كان مُخْتَنِقًا بالأعشاب الغضة(...) فيما مضى كان لديه القدرة على إثارة الخوف، على تغيير الحَيَوات، ولكن الآن سُجِبَت أسنانه، واستهلكت روحه، عشب شريطي أخضر مُوجَل يقود النفاية المُنتَنَة إلى البحر فحسب، أكياس بلاستيكية بَرّاقة هبّت على سطحه اللزج المليء بالأعشاب الضارة(...) " (أرونداتي، 1999، الصفحات 146,147).

ارتباط روحي ونفسي قوي بالطبيعة يعكس أخلاقا حسّاسة للرعاية، إنصات للطبيعة في قمة التفاعل والتأثر العميقين تعكس احترامها كمؤثر قوي، وفي آن واحد ارتباط يُسقط الحالة النفسية والوجدانية لشخصيات الرواية في قالب رمزي مُعبّر ومُبدع، فغزارة الأمطار والفيضانات رمز للغضب والحزن، والجوّ المشمس والزهور المُتفتّحة رمز للتفاؤل والحياة، وبذلك تتقمص الطبيعة في الرواية دور شخصيتين تمثل إنصاتا حقيقيا: شخصية الصديق المُحب، وشخصية العدو المُدمر، وهو ما يمثل توازنا يجسد فلسفة الإصغاء للطبيعة في العلاقة المعقدة بين الإنسان وبيئته: " كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل وكان النهر قد ارتفع، وكانت مياهه سريعة وسوداء تتلوى كأفعى نحو البحر، حاملة معها سماءات الليل الغائمة(...) وفي بُرْهة أبطأ المطر متحوّلا إلى رُذاذ ثم توقف، هز النسيم الأشجار ولفترة أمطرت فقط تحت الأشجار، حيث كان المكان مأوى فيما مضى(...) تَلَأَلَت الأشجار مثل معدن مُطَرَّق، تدلت أجسام كثيفة من خيرزان أصفر في النهر و كأنها تَحَزَن مُسبِقا على ما كانت تعلم أنه سيحدث (...) " (أرونداتي، 1999، صفحة 329).

4. 2. تيري تيمبست وليامز ورواية: "الملجأ أو الملاذ: تاريخ طبيعي للعائلة والمكان" 1991:

Terry Tempest Williams (1955 مولدها) عمل أدبي يمزج بين السيرة الذاتية والمذكرات وبين الطبيعة والنشاط البيئي، تتحدث الرواية عن التاريخ الشخصي لعائلة تيري خصوصا والدتها المصابة بالسرطان مستكشفة في ذلك علاقتها بالأم وبالطبيعة، تجري سلسلة أحداثها على بحيرة "سالت ليك" في يوتا، هي دعوة للتأمل والتعبير، يجمع الملجأ بين الجمال اللغوي وبين العمق العاطفي، الإنصات إلى الطبيعة عنصر مركزي في الرواية، فتيري بينت كيف يمكن للطبيعة أن تكون ملاذا لأحزاننا ودافعا للشفاء منها وللتأمل العميق، وتستكشف تيمبست هذا المفهوم "الإنصات إلى الطبيعة أو التلقي" من خلال عدة جوانب يمكن حصرها في:

التفاعل الروحي مع الطبيعة: من خلال وصفها الدقيق لمسرح الأحداث "بحيرة سالت ليك" حيث كانت هذه المساحة الطبيعية ملاذ تيمبست للتنفيس عن حزنها لمعاناة والدتها مع المرض، فالبحيرة كانت بمثابة صدر دائي امتص

تلك الأشجان واستبدالها براحة نفسية عجيبة: " أحب مشاهدة النوارس وهي تحلق فوق الحوض العظيم، في مثل هذه الأيام عندما تنكسر روجي فان بساطة الطيران والشكل فوق البحيرة تزيل تشابكات حزني " (Tempest, 1992, p. 75).

التعلم من الطبيعة: بينت الرواية بأن الطبيعة تعلم البشر الصبر والتواضع والتوازن من خلال مراقبة الطيور ومختلف الحياة البرية، ما تعلمته تيري من ذلك أن المعاناة تُظهر لنا ما نحن متعلقون به، فالموت لا يسبب المعاناة بل مقاومته هي من تفعل ذلك.

التدمير البيئي والحفاظ على الطبيعة: تطرح تيمبست بشدة وتعبر عن امتعاضها وقلقها من التدهور الذي يحاصر الطبيعة بفعل العنصر البشري، وهو ما أشارت إليه من خلال انقراض الطيور المتنوعة التي كانت تتألق فوق بحيرتها المعشوقة "سالت ليك": "تَناقص أعداد طيور مالك الحزين، وطيور العقعق والبجع في جزيرة بحيرة سالت ليك الكبرى، في حين طيور النورس هي أقل عرضة للتأثيرات البيئية من الطيور الأخرى، ولذلك فأعدادها ترتفع في البحيرة" (Tempest, 1992, p. 71)، وهو ما يوحي بدراية واسعة للكاتبة بعلم الطيور والبيئة.

الانسجام مع الطبيعة: تُبرز تيمبست أهمية الطبيعة في حياة البشر وأنها ملاذ للقوة والتشافي والتواصل الروحي، فالإصغاء أو التلقي ليس تأملا فقط بالنسبة إليها، بل هو نمط حياة وفلسفة للعيش في ظل إدراك تفاعلي مع البيئة، عبرت عن ذلك من خلال الانسجام والسلام الداخلي في تلك المراقبة التأملية لمناظر الطبيعة وكائناتها: " لقد أتيتُ إلى سلام الكائنات البرية الذين لا يُنقلون حياتهم بالتفكير في الحزن، لقد جئتُ إلى وجود المياه، و أشعر فوق النجوم العمياء النهارية" (Tempest, 1992, p. 216) .

5. خاتمة

مما تقدم يمكن أن نستنتج ما يلي:

- إن علاقة النسوية بالبيئة علاقة تفاعلية تجسدت كفلسفة تلقي وإنصات للطبيعة بفضل ذلك التناغم والانسجام والاتساق بين ما نشعر به وبين ما توحى به الطبيعة.
- تحذير شديد للهجة من طرف النسوية البيئية لأي عبثية أو تدمير بيئي أو محاولة للتحكم في قوانين الطبيعة لأنه لا يشكل تهديدا للنظام البيئي فحسب، بل تهديدا للبشرية أيضا لأنها جزء من النظام.
- قالب أدبي جسده النسوية البيئية في لغة سردية بامتياز تحاكي أصوات الطبيعة مُستلهمة التصور النسوي البيئي الذي يرفض التحيزات الذكورية واستغلال الأبوية في علاقة تنافرية مع الآخر غير البشري (الطبيعة) قائمة على الهيمنة.
- إبراز التمرکز الأنثوي المُسالِم والمُشارك للطبيعة على نحو متكافئ في تبادل وجداني وعاطفي على مسرح أخلاق حساسة للرعاية سياقية لا تدركها سوى المرأة والطبيعة كما أشارت إليه وارين، شيفرد، وستارهوك.

- يمكننا أن نستوحي مقترحات وتوصيات محورية لفلسفة التلقي يمكن إجمالها في: ضرورة العودة إلى رحاب الطبيعة و أحضانها عن طريق التأمل والإنصات لاستشعار مكانتها الفعلية وتعزيز الوعي البيئي اتجاهها، تلمين الأدب النسوي البيئي وفلسفة الإنصات إلى الطبيعة وإبراز أهميته في الحفاظ على البيئة.

6. قائمة المراجع:

- Buter, T. (1987). variation on sex and gender beauvoir, witting and foucault Edited: Ben Habib Seyla, Cornell Ucilla. university of minnesota: press minneapolis.
- Daly, M. (1978). Gyn Ecolog The Metaethics of Radical Feminism. Boston: BeaconPress.
- Dodson, G. (1979). Green Paradis Lost. California U.S.A: Rountable Press.
- Giligan, C. (2008). Une voix differente pour Une Ethique du Care. paris: Flammarion.
- Glazebrook, P. (2021). Ecofeminism Then And NOW A brief History. Chief Edition B.H.U Press Aindu University.
- Griffin, S. (2015). Introduction , Women and Nature. New York: Open Road Media.
- Kareen, J. W. (2000). Ecofeminist Philosophie. New York, Toronto: Rowman and Littlefield publishers.
- Kàur, G. (2012). Essegesis of Post Clonial Ecofeminismum. Contemporary Literature International Journal of Law and Social Science , 188.
- Merchant, C. (1996). Women and Environment, catch car. New YORK: Routledge.
- Starhawk. (2013). The Earth Path. Harper One.
- Starhawk, M. (2011). The Spiral Dance. San Francisco: Harper One.
- Tempest, T. W. (1992). Refuge: An Unnatural history of Family And Place. First Edition. New York: Random House.
- walters, m. (2005). Feminism A Very Short Introduction. oxford: university press.

ابراهيم,ع. ا. (1999). التلقي والسيقات الثقافية السرد أنموذجا. علامات، جزء 34.

أرونداتي,ر. (1999). اله الأشياء الصغيرة، تر:م.جهان الجندي.سورية، دمشق: دار الجندي للنشر والتوزيع.

بكاي,م. (2019). جدل النسوية: فصول نقدية في ازاحة الدوغمائيات الأبوية. ط1 الجزائر: منشورات الاختلاف.

زيمرمان,م. (2006). الفلسفة البيئية من حقوق الحيوان الى الايكولوجيا الجذرية، ج2، تر:معين شفيق رومية. الكويت: سلسلة عالم المعرفة. (333).

شيفرد,ج. ل. (2004). أنتوية العلم: العلم من منظور النسوية البيئية، تر:يمنى الخولي. الكويت: سلسلة عالم المعرفة (306).

كارسون,ر. (2005). الربيع الصامت تر:أحمد مستجير. القاهرة: شركة الأمل للطباعة والنشر.

لوفلوك,ج. (2012). وجه غايا المتلاشي تحذير أخير، تر:سعد الدين خرفان. الكويت: سلسلة عالم المعرفة. (388).